المشرق

آثار حمص القديمة

نبذة للاب بولس جوون اليسوعي

كانت حمص منذ بضعة اعوام خارجةً عن دائرة سياحة السيَّاح لا يقصدها من الجوَّالة الَّا الافراد. امَّا جمهور الزوَّار فكانوا يحجُّون الى الاماكن المقدَّسة ليتبرَّكوا باستلام قبر المسيح واكرام آثار الغادي لذكره المجد في انحاء فلسطين. وربَّما هرع منهم بعض الفرق الى جهات الشام لمعاينة مدنها القديمة او يمَّموا بعلبك للبحث عن ابنيتها العاديَّة او توقَّفوا لبنان لتسريح العيون في مناظره الشائقة والاستظلال تحت اغصان ارزه الباسقة وكانت حمص في اثناء ذلك راتعةً في بطحائها الفيحاء مطوَّقةً بقلادة جنَّاتها الغنَّاء. لا يقلق سكينتها رحَّالةٌ اللهمَّ الَّا نادرًا

امَّا الآن فقد اضحى السفر الى حمص من اسهل الامور. فتركب عند بُلجة الصبح العَجَلةَ (الديليجنس) من طرابلس وتبلغ حمص بُعَيد العصر فيكون مجموع ما قطعتهُ من المسافة اربعًا وتسعين كيلومترًا. وليس في طول هذه الطريق من القرى المهمَّة غير تلّ كَلَخ. اما الطريق فتُجاور شاطئ البحر مدَّة ساعتين ثم تدور وراء جبل عكَّار المتَّصل شمالًا بلبنان وهو يشبهُ بعلوّ قممهِ الشاهقة المكلَّلة بالثلوج الغراء. ثم تميل نحو الشرق وتنساب في وديان ليست بعميقة الغور الى ان تقطع النهر الكبير المدعو في كتب الاقدمين بنهر ألوثاردس. وتمرّ في وسط سهل البُقَيعة وهي البطحاء الفاصلة بين سلسلة لبنان جنوبًا وجبل النصيرية شمالًا. ولا يلبث المسافر ان يُشرف على بقعة العاصي وعلى بُحيرة حمص ومياهها الصافية الزرقاء الضاربة الى الخضرة. وبعد قليل تقطع العربةُ نهر العاصي في موضع تزخر فيهِ المياه وتندفع بشدَّة ثم ينتهي المسافر الى حدائق رائعة كرياض دمشق تفضي بهِ الى حمص

واوّل ما يستجلب النظر في حمص قلعتها وهي الآن عبارة عن اكمة واقعة في طرف البلدة تطلّ عليها. فاسرعنا قبل غروب الشمس ان نرقى هذه الربوة لنشمل بلمحة عين جميع انحاء المدينة فنكون على بصيرة من وضعها وخواصّها. وليست حمص كحماة وانطاكية على ضفّة العاصي بل تبعد عنهُ نحو ميل. والسبب الارجح لذلك لتكون المدينة على مقربة من القلعة. فلمّا رأى الاقدمون انّ السهل متّسع لا يصعب فتح مدينتهم ما لم تكن في حراسة حصن حصين عمدوا الى ربوة كثيرة الصخور في شرقي النهر على مسافة نصف الساعة منهُ فجهّزوها بتلّ المرادّ اليها وجعلوها قلعةً في وجه العدوّ

ولم تُبْنَ المدينة حوالي القلعة كما ترى في حلب فانّ قلعة الشهباء صناعيّة ايضاً وهي في ظهراني البلد تُحدق بهِ مساكن الاهالين. امّا حمص فرقعها في شمالي قلعتها وكانت هذه القلعة من الحصون المنيعة الحريزة التي لا يطمع في فتحها الّا الابطال وهي على صورة مخروط قُطع رأسهُ ودَوْرها نحو تسعمائة متر وعلوّها فوق المدينة نحو ثلاثين مترًا وجانبها المواجه للمدينة ذو عَطْفةٍ سريعة المهبط. امّا الجانب الآخر فهو مصفّح بالحجر البركانيّ تصفيحاً محكماً. لم يبقَ اليوم من هذه القلعة سوى آثار من البناء المستحدَث. ومن استقرى جهتها الشرقيّة وجد عَمَدًا وبقايا ابنية نُقلت كما نظنّ من هيكل الشمس القديم ذي الشهرة الطائرة في حمص. وكان خراب القلعة على يد ابرهيم باشا ترضاً لانتقاض اهلها عليه

وكانت لنا هذه الاكمة بمثابة مرقبٍ سرّحنا منهُ العين في انحاء الأفق لمشاهدة المناظر الجليلة المحدقة بحمص. فكنّا نرى غربًا جبل النصيريّة الذي يضاهي لبنان في محاسنهِ بيد انّهُ اخصب تربةً وهو يمتدّ من الجنوب الى الشمال موازيًا للبحر وينتهي عند انطاكية. وكنّا نحاول ان نرى من جهة شمالنا مدينة حماة المشهورة المسمّاة في كتب اليونان ايبيفانية الّا انّهُ كان يحول دون نظرها تجوّاتٌ واقعة بينها وبين حمص وبُعد حماة عن حمص نحو ثلاثين كيلومترًا وموقعها على ضفّة العاصي. امّا من جهة الشرق فما كانت ابصارنا تكتشف سوى الصحراء المتّسعة الارجاء المنبسطة الى تدمر ثمّ الى الفرات. بخلاف الجنوب فانّ مناظرهُ فتّانة. فكنّا نُعاين عن بُعد قمم جبل الشيخ الذي وراءهُ عاصمة الشام وحاضرة الخلفاء ثمّ وادي العاصي وبُحيرة حمص المعروفة ايضاً ببحيرة قادش لوقوعها بجوار مدينة قادش الشهيرة. وكنّا نرى ايضاً بازائنا ما اشرف على العاصي من سلسلة جبل عكّار. هذا فضلًا عن ابنية حمص ومساكنها القائمة الواقعة تحت اقدامنا. وهي تحتوي على نيّف

وخمسين الف نفس. ولا تجد في ابنيتها الحديثة ما يستحق الذكر فان اكثر بيوتها مربعة الشكل لا طوابق لها يعلوها سطح من تراب مدكوك

هذا وان حمايت مناظر حمص الحديثة في عيننا الا اننا وجدنا في آثارها القديمة ما هو احرى بالاعتبار والذكرى فاحببنا ان نلخص شيئاً من هذه المفاخر التي شرفت مدينة حمص منذ سالف الزمان

اعلم انَّ حمص من اقدم بلاد الشام وقد زعم البعض انها من بناء اليونان. لكنها قد سبقت عهدهم بزمن طويل وجاء وصف شعبها في مراسلات تلّ العمارنة المكتشفة منذ عهد قريب تُطرئ هذه الآثار جلد الحمصيين وثباتهم وبسالتهم في الحروب وذلك في القرن الخامس عشر قبل المسيح (١

وكانت حمص في القرن السابق لزمان المسيح مملكة مستقلة تولّى امرها دولةٌ وطنيّة. وقد ذكر اسطرابون الجغرافي (ك ١٦ ف ٢) اسم ملكها سَمِيغراموس او سَمِيسيكراموس المالك عليها في اواسط القرن الاول قبل المسيح. وجاء في كتاب العاديات اليهودية ليوسيفوس المؤرخ (ك ١٩ ف ٨) ذكر ملكٍ آخر يدعى ايضاً سمغراموس عاش مئة سنة بعد الاول. وقد خلفهُ في المُلك ولداهُ عزير وصُوَيم ولم تلبث المدينة حتى استولى عليها الرومان نحو سنة ٨٠ بعد المسيح تشهد بذلك مسكوكات دوميطيانوس قيصر

وفي اسم سمغراموس المذكور نظرٌ فانهُ مركّب من «سَمَس» او «شمس» وهي إلهة تلك البلاد. ولا يجهل القرّاء انَّ بعلبك (وهي في جنوبيّ حمص على ثلاث مراحل منها) كانت مركزاً لعبدة الشمس كما يدلُّ على ذلك اسمها اليوناني هيليوپوليس اي مدينة الشمس فانتشرت عبادة الشمس في الولايات المجاورة لها

وكان لحمص هيكل عظيم باسم الشمس قد رسم وجههُ الملكُ الروماني كركلّا على النقود المضروبة باسمه. وكان هليوغابال احد ملوك رومة عظيم سَدَنة هذا الهيكل وكان عمرهُ لم يتجاوز الاربع عشرة سنة حين جلس على منصّة الملك في سنة ٢١٨. بيد انَّ ما اجترحهُ في مدّة ملكهِ من الآثام الفظيعة وما فرط منهُ من افعال التخنُّث والتهتُّك يشهد لنا على سوء آداب عبدة الاصنام واحبارهم في حمص

وفي جوار حمص دارت الدوائر على زينب ملكة تدمر اذ احاقت بها قوّات الرومان

(١ Conder: *Tell Amarna Tablets*, p. 18

فخارت دون مقاومتها وتبدّد جيشها وتمكّنت هي من الفرار الّا انّها بعد قليل وقعت في ايدي العدوّ وجرى لها ما جرى. وكان اذينة زوجها قُتل غيلةً قبلهـا في حمص (راجع ص ٦٩١ من المشرق)

وفي حمص دُفن خالد بن الوليد الملقّب بسيف الله. ولا يزال قبرهُ مكرّمًا الى يومنا قد بُني فوقهُ مسجدٌ يقصدهُ المسلمون. وليس في البناء ما يستحقّ الذكر سوى انهُ يعلوهُ قباب مبيّضة بالكلس. واخبرني الشيخ القائم على حراسة المسجد انّ المسجد قديم البناء وقد رمّمهُ السلطان الملك الظاهر بيبرس لكنّني لم اجد له كتابة ولا شعارًا كما نرى في الجوامع التي شيّدها هذا السلطان في مصر والشام وعليها شعارهُ وهو صورة اسدَين متواجهين

هذا وقد قرأنا في كتاب معجم البلدان لياقوت (٢ : ٣٣٦) ما نصّهُ : « وبها (حمص) دار خالد بن الوليد وقبرهُ فيها يقال وبعضهم يقول انّهُ مات بالمدينة ودُفن بها وهو الاصحّ . . وقيل ان خالد بن الوليد مات بقرية على نحو ميل من حمص وانّ هذا الذي يُزار بحمص انّما هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية » (اه) والله اعلم

وفي سنة ١٠٩٩ فتح الصليبيّون مدينة حمص ودخلوها بالامان الّا انّهم لم يُبقوا فيها لملكهم اثرًا . امّا ما شادوهُ من الابنية في كلّ القاطعة التي بين حمص وطرابلس وعلى شاطئ البحر وفي جبال النصيريّة فانّهُ لا يكاد يُحصى ولم تزل الى يومنا منهُ بقايا جليلة قد وصفها وصفًا حسنًا العلّامة رِهْ (Rey) سابقًا والسيو دوسو (Dussaud) منذ سنتين

وفي سنة ١٢٦٠ زحفت الى الشام عساكر المغول فوصل طرفٌ منهم الى المعرّة فخربوها وتسلّموا حمص وحماة بالامان. غير ان قُطز التركماني سلطان مصر لمّا علم ان هولاغو كبير المغول رجع الى المشرق ولم يترك في الشام سوى عشرة آلاف فارس بامرة كتبغا نائبه استضعف امرهم وجمع عسكرًا دهمًا لمحاربتهم والتقى بالمغول عند حمص وكسرهم كسرةً قبيحة وقتل كتبغا. بيد ان المغول عادوا بعد سنين قليلة وانتقموا لانفسهم وفرّقوا ايدي سبا العساكر المصريّة التي كان الملك الناصر سيّرها لمقاتلتهم (سنة ١٢٩٩). وكان آخر اثر لمرور المصريين في حمص سنة ١٨٣٢ لمّا فتحها ابرهيم باشا بعد واقعة قصيبين واخرب قلعتها

ومن غريب الامور انّ في حمص وجوارها آثارًا كثيرة مصريّة ترتقي الى عهد الفراعنة .

وقد وُجد منها عدد وافر كاصنام آلهة مصر وتماثيل وتمائم وحلي وادوات شتى وقد زعم البعض انّ هذه الآثار من شغل المصريين اتوا بها الى الشام عند توليهم عليها. وقيل بل هي شغل السوريين وضعوها لخدمة المصريين. وعلى كلّ حال فانّها تشهد بلسان حالها بنفوذ المصريين واتساع شوكتهم في البلاد الشامية. ودام ملكهم في سورية اجيالًا طويلة في عهد الدول المصرية الثلاث الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين فاخذ السوريون شيئًا كثيرًا من عوائد آل مصر وتديّنوا بدين سكّان وادي النيل وربّما خلطوا بين اديان مصر والشام فوحّد اهل جُبَيل الاله اوزيريس والهتهم ادونيس فعبدوهما معًا. وقد وقف المسيو دوسو في حلّة على مسافة تسع ساعات في غربي حمص على كتابة يونانية تدلّ على تعبّد السوريين للاله اوزيريس وفيها مكتوب « عبد اوزيريس الذي باركهُ بعل » (١)

وحمص مع قدمها لم يكُ لها في زمن الفراعنة شهرة كبيرة وانّما كان الامر والعظمة لمدينة اخرى خطيرة الشأن تدعى قادش وكان موقعها عند بحيرة حمص المدعوّة لذلك ببحيرة قادش. وبقربة من هذه المدينة فاز رعمسيس الثاني ملك مصر « برَعاع الحثيين » بعد اخطار كثيرة دهمتهُ من قبل العدو. ونجا منها « بعونة ابيه الاله أمُون را ». وقد وصف انتصارهُ هذا على الحثيين في كتابة رتاج هيكل الأقصُر وعدّد في هذه الصفيحة فتوحاته ومفاخرهُ الملكية. وقد رجّح المسيو غوتيار (Gautier) بعد البحث الطويل ان موقع مدينة قادش كان عند التلّ المعروف اليوم بتلّ بني مندو

ولكن قد حان لنا الآن بعد النظر في ذكر حمص القديمة ان ندخل البلدة ونتجوّل في شوارعها لنلتقط شيئًا من اخبارها وآثارها. ولسائل ان يسأل ماذا بقي من ذلك الهيكل المعدود من عجائب الهندسة اي معبد الشمس في حمص. نجيب انّ بقايا هذا الهيكل عزيزة جدًّا انّما ظنّ انّ الحجارة الضخمة البيضاء الضاربة الى الصفرة الباقية الى يومنا في ساحة المدينة بقرب السوق كانت اساسًا لهذا الهيكل. ومن هذه الحجارة قطعٌ اخرى كبيرة اتخذها البنّاؤون لبناية الكنة. وما خلا هذه الحجارة لا نجد في حمص سوى الحجر البركاني المسودّ الذي يكسو البلدة بهيئة قاتمة كئيبة. ولمّا اراد الحمصيّون بناء هيكل الشمس لم

(١) M^r Dussaud : *Revue Archéologique*, 1896, p.

يرضوا لالهتهم البهية النور بما فيهِ لمحةٌ من الظلمة فطلبوا لها حجارةً بيضاء جلبوها من مسافة بعيدة وشيّدوا بها هيكلهم

اما موقع هذا المعبد الشهير فليس تعيينهُ بامر سهل والمرجّح انّهُ كان في مقام المسجد الجامع الذي يُعرف اليوم بمسجد النور. وما يؤيد هذا التخمين بقايا اساطين وعُمد من حجر الصوّان الباقية الى اليوم في ساحة المسجد. ومنها عمود ضخم كلسيّ داخلٌ في جدار الجامع منصوب على ركنٍ قديم وفي وجه الركن كتابة يونانية. فمن يرى هذا العمود لا يشكُّ انّهُ لم يُزحزَح عن موضعهِ القديم وانّهُ كان من جملة بناية جليلة الشأن اخفى عليها الزمان. ولعلَّهُ في اسم الجامع «مسجد النور» دلالة على موقع هيكل الشمس سابقًا والله اعلم

ومن مآثر حمص الحريّة بالذكر بناء مرتفع في غربيّ البلدة قريبًا من المقبرة يدعوهُ الحمصيّون الصومعة. ولا يخفى انّ الصومعة عند العرب تدلُّ على بناء عالٍ مدقَّق الرأس وربَّما دلَّ على مقام الرهبان. ولهذه البناية اسمٌ آخر عند اهل حمص يدعونها القبر وبعضهم يسمّيها قبر قيصر. وهي في الحقيقة تشبهُ القبر بعض الشبه وفيها لمحة من هندسة الحصون. ومن تأمّلها وجدها كبرج عالٍ مربّع تبلغ جوانبهُ خمسة عشر مترًا وهو مبنيٌّ بالآجرّ المرصوص الحسن الشيّ بالنار المطليّ بالملاط. وكان خارجهُ مصفَّحًا بنحيت الحجارة لم يبقَ منهُ اثرٌ الّا في جهتهِ الشماليّة وهو على شكل شبكة تتناوب فيها الحجار السود والبيض. وفيهِ نقوش هندسيّة بسيطةٌ تفصل كلّ طبقة عن اختها وهي على شكل خطوط تائهة واكاليل وكلُّها من الحجر الاسود البركانيّ. ولم يطلعنا احد على غاية هذا البناء ولا يُستدَلُّ من النظر في اجزائهِ على خواصّهِ لما اصابهُ من الخراب. والظاهر من نقوشهِ انّ صانعهُ كان من اهل البلد واما تركيب ملاطهِ فهو اشبه بشغل الرومان. وقيل لي انّهُ وُجدت فيهِ قديمًا كتابة يونانية يؤخذ منها ان البنيان قبر ملوك حمص السابق ذكرهم. ولعلَّ هذا البناء هو الذي ذكرهُ ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٣٣٦) ودعاهُ «القصر» وزعم انّ بانيهُ هو خالد بن يزيد بن معاوية قال: «وآثار هذا القصر في غربيّ الطريق باقيةٌ»

ومما اكتُشف حديثًا في حمص سربٌ وجدهُ الخواجا سليم ذكور في مُلكهِ له في حيّ باب السباع. وهو مدفن واسع يُنزَل اليهِ بدرج يُفضي بالزائر الى سطح مربّع وعلى جانبيهِ يمينًا وشمالًا اربع غُرَف وكلّ غرفةٍ مهيَّأة لعدّة جثث. وهذا المدفن بُحكم الصنع لا

يدخل في بنائه حجرٌ وكلُّه مبنيٌ بالآجرّ يبلغ طول الآجرّة ٢٨ سنتيمترًا في ٢٠ س عرضًا وثلاثة سمكًا ويضمُّ الآجرّين بعضها ملاطٌ من الكلس وفتاية القرميد والحصى. والخنايا مقوَّسةٌ تتساند الى بعضها. وفي الجدار الداخلي مَشَاكٍ أُعِدَّت لوضع الرواسم غايتُها دَعْم الآجرّ لئلاَّ يهبط كما يصنع المهندسون في أيامنا بمصر والشام. وكان السطح المربَّع تعلوهُ سابقًا قبّة وبقربه اليوم بئرٌ وبقايا مساكن قديمة. والارجح انَّ هذا البنيان من آثار الرومان وصفناهُ هنا لانَّ مثلهُ قليلٌ في الشام

وترى في كلّ شوارع المدينة بقايا عَمَد واساطين ورؤوس اعمدة وعَتَبات كُسِرت فاتَّخذت اقسامُها للبناء الحديث. والكتابات اليونانية في حمص كثيرة منها وثنيّة ومنها نصرانية قد نشر بعضها بالطبع الملأمة وَدِنْقِتْ(١. وفي السنة الماضية قد وجد غيرها الدكتور لويس موسيل تريل مدرستنا الكلّية في بيروت. ولا يزال منها شيء كثير داخل بيوت الخاصّة يصعب الوصول اليها

وقد دخلت النصرانية في حمص بعد المسيح بقليل لكنَّ آثار الدين المسيحي قليلة واخصُّها الكنيسة الكبرى المشيَّدة على اسم القديس يوحنَّا المعمدان. وكان موقعها في محلّ هيكل الشمس. واخبر ياقوت الروميّ (٢ : ٣٣٥) « انَّ أبا عُبَيدة لمَّا فرغ من امر دمشق قدم حمص على طريق بعلبكّ ونزل بباب الرَّسْتَن فصالحهُ اهل حمص على ان امَّنهم على انفسهم واموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم واستثنى عليهم رُبع كنيسة يوحنَّا المعمدان ». وفي هذه الكنيسة بقيت مدَّةً هامةُ القديس يوحنَّا الصابغ كما ذُكر في السنكسار الروماني في ٢٩ آب وفي السنكسار اليوناني في ٢٤ شباط (٢ وقد درست آثار هذه الكنيسة الجليلة

وقد اشتهر في حمص بعض القديسين واشهرهم الطبيب جُليان يدعوهُ نصارى حمص باسم إليان وهو من شهداء القرن الرابع امر بقتله مكسيمينوس غاليريوس في سنة ٣١٢ م وقبرهُ لا يزال مكرَّمًا الى يومنا في كنيسة الروم بحمص وهو مصحَّف بالرخام الابيض لا يزينهُ شيء سوى صليبان نُقشت فيه. وفي حمص استشهد على عهد دِقْيوس الشهيدان

---

١) راجع Wadington: *Inscriptions grecques et latines de la Syrie*, p p. 589-591

٢) راجع كتاب الاب نيلس Kalend. utriusque Ecclesiæ I, 111

غَلْقَيون وزوجتهُ ابيستيمة (١. وفي هذه المدينة ايضاً وُلد في اواسط القرن الخامس القديس رومانوس الشمّاس الذي اشتهر بعدئذٍ في بيروت وكتب التسابيح الكنسية (٢

اما مشاهير الادباء والكتبة الذين يفتخر بهم اهل حمص فكثيرون نكتفي بذكر لنجينوس (Longin) الفيلسوف الشهير الذي اختصّتهُ زينب ملكة تدمر بخدمتها (٣. ومنهم في زماننا الشاعر النصراني المشهور بطرس كرامة الحمصي

هذا ما امكننا جمعهُ من مآثر حمص القديمة اما حمص الحديثة فلا نتعرّض لوصفها. والأولى انّ احد ابنائها يقوم بهذا المشروع فينعتها بما هي اهل لهُ والسلام

اشتراك الكهنة بالتقديس

لحضرة الاب جان باريزو من رهبانيّة القديس باسيل

١

(كنّا اثبتنا في بعض اعداد المشرق (ص ٤٣٠) على هذه المقالة واشرنا الى ما تتضمّنهُ من الابحاث المهمّة لمعرفة اصول الطقوس الشرقيّة. فسألنا بعض ارباب الدين ان نترجمها لهم ليقفوا على فوائدها وينسجوا على منوالها فلبّينا الى طلبتهم بعد نوال الرخصة من صاحبها)

لا يخفى انّ اوّل من تعهّدَ اليهِ الكنيسة القيامَ برُتبها المقدّسة انّما هو الاسقف ثمّ فرضت على الكهنة الذين تحت سلطتهِ ان يصحبوا الحبر في تتميم هذه الطقوس الجليلة فيجزوها بميّتهِ (٤

ولمّا كانت هذه الرتب في اوائل الكنيسة تتمّ على نظام خصوصي ترى الجوامع المقدّسة تكرّر في قوانينها الامر للكهنة بان لا يقوموا بشيء من الخدَم الدينيّة بمعزلٍ عن الاسقف. ولا يباشروا رتبةً ما بحضورهِ ولاسيّما تنهاهم عن تقريب القربان امامهُ. قال القديس اغناطيوس الشهيد في رسالتهِ الى اهل ازمير (٥: «فليحظر الكهنة ان يتولّوا بنفسهم دون الاسقف شيئاً من الخدَم الكنسيّة. وليعلموا انّ القربان ليس بشرعيّ ثابت (βεβαία)

١) Ib., I, 293 ٢) Ib., I, 316

٣) راجع ترجمة لنجينوس التي كتبها سويداس (Suidas)

٤) راجع مقدّمة تكريس الكهنة حسب رتبة الطقس الروماني (Pontifical romain)

٥) راجع مكتبة الآباء الكنسيّة اليونانية (Migne, V, 713)